د. عبد الرحمن منيف

العودة الى أوراق الذاكرة

.. ربع قرن كامل ، خمس وعشرون سنة ، كأنها العصور في رحلة هذا الزمن المثقل بالاحزان والقلق والتغيرات والحروب .. وامل المستقبل الافضل ايضا ، وكأنها ، في الوجه الاخر ، ايام سريعة تشبه الخيول الجامحة في انطلاقتها نحو المجهول والموت !

ماذا يستطيع الانسان ان يكتب في ظل الحرائق ورائحة الموت وشبح الرحيل الدائم ؟ ماذا ابقت هذه الخمس والعشرون من السنين في الحقائب وعلى جدران الذاكرة؟ واخيرا ما فائدة الكلمات التي كتبت او التي تكتب الآن ما دام الانسان العربي يعيش تحت وطأة الموت المباشر المادي والمعنوي ، وما دامت شريعة الغاب هي التي تسيطر على الواقع العربي من المحيط الى الخليج ؟

لقد حصلت اشياء كثيرة ، اكبر من الكلمات واقسى آلاف المرات في هذي الخمس والعشرين سنة ، ولانها بهذه الضخامة والقسوة فالخوف والتهيب يمنعان من تحويلها الى حروف سوداء ، او مجرد كلمات وافكار غير قادرة على الوصول الى ذلك الشموخ النادر المثال ، والذي لا يحصل الا في فترات التفير الكبرى والانتقال .

ان كثيرا مما حصل اقرب الى الخرافة وعدم التصديق ، وكأنه كابوس دام ، او شيء يوازي المستحيل ، واذا لم تكن الكتابة قادرة على تفجير تلك القفزة المميتة ، ذلك الطوفان الذي لا يعرف التوقف ولا يترك امامه شيئا ، فعندئذ ستكون الكتابة اقرب الى الخيانة ، او في احسن النوايا ، مساهمة في سوق النخاسة الذي بدأ منذ وقت طويل ولم ينته بعد .

هل يمكن للكلمة ان تصبح بتأثيرها واهميتها موازية للقنبلة ، للطلقة ، لحيل المشنقة ؟ هل يمكن ان تفجر هذا العفن المتراكم ، والذي يعلو يوما بعد اخر ، ليصبح الملح الوحيد للحياة العربية المعاصرة ؟ هل يمكن للكلمة ان تفجره ، ان تخضه ، ان تقلبه ، واخيرا ان تغيره لتقيم بديلا ، افضل منه ؟ يكاد الانسان ان يقول : لا .. لكن رغم المرارة التي يحسها من لا يملك سوى الكلمة ، ورغم قناعته انها لا تزال سلاحا ثانويا ، وتأثيرها لا يتعدى خفقة ريح واشارة طريق ، فان من يكون سلاحه هذا لا يجد مفرا من اللجوء اليه لكي لا يختنق ويموت .

وفي ظلال الحلم ـ الرغبة لا يجد مفرا من ان يقول شيئا ، ان يكتب شيئا ، ومن خلال السخاء الذي يرفع الحدود ، في ان تحمل الكلمات بعض الدلالات ، يغامر ، يصلب نفسه آلاف المرات كل يوم ، لعله يستطيع ان يخلص الاخرين من خلال نضاله المستمر من اجل خلاص نفسه!

هذه .. وعشرات الافكار والرغبات الاخرى تعبر حين يمسك الانسان القلم ، حتى لو اراد ان يكتب اسمه وعنوانه ، لكن مع ذلك ، بالرغم من ذلك ، فان مجازفة الكتابة تبقى حارة نفاذة مثل رائحة الدم التي تملأ كل شيء في هذا الوطن .

هذه اذن محاولة ، ومحاولة في اصعب الظروف ، ليس لان الموضوع من الاتساع والرحابة الى درجة يعجز عنها كاتب واحد فقط ، وانما لان الاوراق احترقت في النيران الكثيرة التي بدأت منذ اكثر من ربع قرن ولم تنته بعد ، ولان الرحيل الدائم لم يبق من الاشياء في الذاكرة الا لمعانها الاول .

اوراق الذاكرة :

.. في ذلك اليوم الشتائي البعيد ، في شباط ١٩٥٤ كنا نتابع بلهفة ، عبر راديو قديم كبير الحجم من ذلك النوع الذي كان سائدا آنذاك ، اخبار الانتفاضة الشعبية التي حدثت في سورية ، والتي استهدفت اسقاط النظام الديكتاتوري واعادة الحريات الديمقراطية للشعب ، بعد سنوات عجاف من الحكم الفردي المتسلط .. في ذلك

عبر الآداب

الوقت ، وعن طريق ذلك الراديو المختنق ، كنا نتحرق من اجل سماع كلمات قليلة : سقوط الديكتاتورية وعودة الديمقراطية .. او بكلمة واحدة : الحرية .. وكانت تتمثل بسقوط النظام القائم من خلال النضال الشعبي ، وارتفاع رايات الديمقراطية من جديد لتواصل سورية دورها .

... وخلال الفترة الواقعة بين بلاغ واخر ، بين قنبلة واخرى ، بين مظاهرة ورصاص الشرطة ، بين حضور صوت الراديو وغيابه ، كنا نطالع بعض الكتب ونناقش كيف كانت الاوضاع وما يجب ان تكون عليه .. وكنا من الكتب نستخرج الافكار والاحلام ، وكانت بين هذه الكتب: « الآداب » ، فنقرأ اشعارها وقصصها وترجماتها ... وكانت تؤكد لنا بحروفها المضيئة المتوهجة ان الحرية لا يمكن ان تغلب، وان الديمقراطية حق لا يمكن التنازل عنه!

هل كانت هذه اول ذكرى واول لقاء مع الاداب ؟

لا .. كانت قبلها ذكريات ولقاءات كثيرة ، ولكنها اقل حدة ولمعانا ، او لم تكتسب معانيها المحددة في غمرة التعب والانتظار والتخفي .. وكانت ما تزال بين الشك واليقين .. هل يمكن في ظل الظروف التي سادت المنطقة آنذاك ان تولد مجلة جديدة تتغنى بالمستقبل وتبشر بالحرية وتحمل معها احزان واعباء مرحلة كاملة ؟

لقد كانت المرحلة كلها ، في تلك الايام ، مليئة بالاحزان والاضطهاد والسجون ، وكانت فلسفة الحكام لا تتمثل بتقييد الحريات وتحديد الديمقراطية وانما كانت تتمثل بالغاء هذه المفاهيم التي بدأت تتسرب الى العقل العربي لتصبح من مقوماته الرئيسية ، ولتصبح الهم اليومي لكثير من المثقفين والجماهير ، ولتأخذ شكلا منظما عبر الاحزاب ، ولتصبح اخيرا نضالا يوميا لا يتوقف ولا يهدأ .

لافترض اذن ان اول لقاء وذكرى للاداب كانت هذه، فاذا حاولت ان اضع لها المعادل الموضوعي فلا اجد سوى : الحرية .

كانت الحرية اذن همّا اساسيا ،او الهم الاساسي لهذه المجلة منذ لحظة الميلاد ، ومنذ ذلك الوقت . وعبر مسيرة طويلة مليئة بالمصاعب ، استمر هذا الهم وعبر عن نفسه باشكال عديدة ، لا تزال اصداؤها ترن حتى الآن.. والآن اكثر من قبل . هذا في الوقت الذي هرمت الكثير من المجلات والمؤسسات واصيبت بفقر الدم وفقدت القدرة على تحديد اولويات الهموم واستشراف المستقبل .

واذا كانت المجلات هي نتاج البشر والمراحل والفلسفات ، فقد كان القسم الاكبر من تلك المجلات ، في مرحلة ولادة الاداب ، قد بدأ يدب نحو القبور ، اعلانا عن ان مرحلة قد انتهت ، وان مرحلة جديدة توشك ان تبدأ.

وما دامت الحرية الباب الكبير الذي دخلت منه الآداب ، فلا بد ان تعكس كل رغبات وتطلعات وآمال المستقبل ، وهكذا ابتدأت ، الى جانب الحريات الديمقراطية المطلوب توفرها ، مناقشات ومعارك لا تزال آثارها الى الآن .

كيف يمكن تحديد وتصنيف القضايا واولوياتها ؟

هل يكون ذلك من خلال التطرق الى حرية الاديب ، ليس باعتباره انسانا متميزا وانما من خلال كونه مواطنا في هذا الوطن الذي هدرت فيه حقوق جميع المواطنين ؟

هل يكون ذلك من خلال المفاهيم العصرية التي يراد التبشير بها في الوطن ، والتي تحدد العصر الذي نعيش فيه على انه النصف الثاني من القرن العشرين ، النصف الذي انتصرت فيه الاشتراكية في كثير من بقاع الارض واعترف للمواطن بحق العلم والعمل والضمان الصحي وضمان الشيخوخة .. الخ ؟

هل يكون ذلك من خلال المفاهيم التي لم تعد مجالا

المناقشة حول حرية الانسان في الاعتقاد والتفكير والتنظيم والاتصال وحرية المراسلة والسفر .. هذه المفاهيم التي عبر عنها الاعلان العالمي لحقوق الانسان واصبحت شريعة واقعية في معظم بقاع الارض ، في الوقت الذي لم يعترف بها في الارض العربية ، رغم التواقيع الخضراء والزرقاء التي مهر بها ممثلو العرب هذه الوثيقة ؟

هل يكون ذلك من خلال الوقوف في وجه المد الرجعي الاسود الذي ساد المنطقة في الفترة التي تلت هزيمة ١٩٤٨ ، والذي حاول ان يستغل النكبة من اجل مزيد من الارتباط مع الغرب واحلافه وقواعده ، واعتبار الغرب قدرا لا يمكن مقاومته او الوقوف في وجهه ؟

هل يكون ذلك من خلال الوقوف في وجه التيارات الاقليمية التي انتشرت وحاولت آن تفرض منطقها وفلسفتها في فترة التراجع ؟

هل يكون ذلك من خلال تأكيد عروبة بعض الاقطار التي كانت تناقش في تلك الفترة هل هي عربية او غير عربية ؟

هذه .. واخرى غيرها ، بعض ملامح الفترة التي ولدت فيها الآداب ، ولانها ولدت في هذه الفترة فقد تصدت بكثير من الجرأة الى طرح هذه المفاهيم ، وخاضت من اجلها معارك كبيرة .

واذا كان جزء مما نراه اليوم قد استقر في وجدان المواطن واصبح حقيقة لا يناقش فيها ، فقد كان مثارا للمناقشات والاختلافات في فترات سابقة ، ولا يزال جزء اخر مثارا للمناقشات والاختلاف حتى الآن .. وخاصة الان ، ولا تزال الاداب تساهم فيه .

لم تكن الاداب في اية فترة من الفترات مجلة بعيدة عن الواقع ، كانت انعكاسا له في جانب ، وكانت مبشرة بالآتي في الجانب الاخر ، ومن خلال تعبيرها عن واقع الجماهير وهمومها ورغباتها وطموحها ، ومن خلال ما تطرحه من الافكار وما تعكسه من واقع المجتمعات الاخرى ، كانت تساهم في تشكيل قناعة المواطن وتملأ وجدانه .

لم تكن مجلة « الاداب » مجلة للاداب فقط ، كانت مجلة للفكر بكل مجالاته ، وحتى الادب الذي فتحت صفحاتها لاستقباله كان ادبا من اجل خدمة الحياة ، ويعبر عن فكر جديد لا عهد لكثير من المجلات التي سبقتها اليه .

لقد ثارت « معارك » عديدة قبل صدور الاداب ، وكانت هذه المعارك ، وان حدثت في نهاية النصف الاول من هذا القرن ، تنتمي الى معارك العصور الوسطى ، سواء من حيث المواضيع او الاساليب . واذا كانت تلك المعارك قد شغلت كتاب تلك المرحلة ، وكانت من الشراسة والحدة الى درجة كبيرة ، فان الاجيال الجديدة كانت بعيدة عنها ، وكانت تنشغل بهموم مختلفة ، وتعبر عن ذلك في المقاهي الشعبية ، في دهاليز الجامعات ، في الحلقات الصغيرة والتجمعات والمنتديات . كانت الاجيال الجديدة تبحث بلهفة عن اشياء مختلفة ، وكانت تريد تجاوز الفكر السائد ، ذلك الفكر الذي انتهى منذ وقت طويل في اماكن اخرى ، لكن الجيل المثقف الذي درس في اوروبا في مطلع هذا القرن حمل في طريق عودته ما كانت اوروبا تريد ان تتخلص منه وان تتجاوزه .

كان الصراع بين الاجيال قويا عنيفا ، وكان غير متكافيء ايضا . ففي الوقت الذي كان يمتلك الجيل الاول كل شيء ، كان الجيل الثاني لا يملك الا القليل . كان الجيل الاول يمتلك الاسماء الكبيرة ، الوجاهة ، النفوذ ، القوة .. وكان يمتلك ايضا وسائل تعبيره .. اما الجيل الثاني فكان يمتلك فقط رفضه ورغبته في التجاوز ، وذلك الجنون الذي يجعل كل شيء ممكنا ويجب ان يناضل من اجله .

في ظل هذه المعركة غير المتكافئة جاءت الآداب .

قدر لها اناس كثيرون ان تقول كلمات قليلة وتنتهي ، كما تنتهي في بعض الاحيان افكار واساليب تخلقها الصدفة وتدفع بها الى سطح الاحداث ، وتصبح خلال فترة من الزمن تقليعة مثل غيرها ، ومحكومة مثل غيرها بظروف الزمن العابر .

وقدر لها اصدقاؤها ان تواجه من الصعوبات الكثير الكثير ، وان الجهد الذي يقوى على احتمال التحديات والمصاعب لا يمكن ان يقوم به فرد واحد ، ولذلك نظروا اليها نظرة تمتزج فيها الرغبة بالشفقة ، ولم يتفاءلوا كثيرا ، بل ظنوا ان مرحلتها لم تبدأ بعد ، وعليهم ان ينتظروا وقتا اطول .

في ظل هذه الاجواء والشروط جاءت الاداب ، واذا كانت جدارة اية مجلة وقدرتها على الاستمرار والصمود تنشأ بالدرجة الاولى من خلال الافكار التي تعبر عنها والاجيال التي تخاطبها والمرحلة التي تمثلها ، فان الاداب قد جاءت لتعبر عن افكار جديدة وعن اجيال جديدة وعن مرحلة جديدة ، وهذه كلها تتطلب عقلا وارادة ونظرة مختلفة عما هو سائد ، نظرة مختلفة نوعيا . فالاسماء الكبيرة لم تعد تعني كل شيء بعد ان فقدت القدرة على التعبير عن المرحلة ، والوجاهة يمكن ان تفتح ابواب الوزارات لكنها لا تستطيع أن تفتح قلوب الجماهير ، والنفوذ يمكن ان يوظف لمحاربة الخصوم لا لكسب اصدقاء جدد ، والقوة ليس مظهرها الوحيد أن تصدر عشرات المجلات والصحف ولا يقرأها احد !

في ظل الظروف غير المتكافئة بين الجيلين ، كما اشرنا ، بدأت المحاولات هنا وهناك ، على شكل تجمعات صغيرة ، او نشرات مكتوبة بخط اليد ، او على شكل مجلات لا تستطيع ان تصدر الا عددها الاول ثم تتوارى ، نظرا لملاحقة الدائنين والسلطات ومحاكم التفتيش « العصرية » !

واذا كانت الفنون التشكيلية ، خاصة الرسم ، قد

استطاعت ان تشق لنفسها اخاديد صغيرة هنا وهناك ،من خلال المعارض الشخصية والجماعية ، ومن خلال الدعم والروافد التي ساندتها في فترة من الزمن ، سواء من قبل الفنانين الوافدين ،ومن قبل البرجوازية الصاعدة التي تطمح في ان تزين جدران قصورها العارية بشيء من ثقافة العصر،فقد استطاعت بعض الفنون التشكيلية ان تتقدم ضمن ظروف افضل نسبيا .. اما باقي الفنون فقد ظلت تعاني الكثير ، اذ ما عدا الشعر ، والذي كان ينتقل شفهيا ،وبشكل تجاوزا لكثير من المدارس والشعراء المسيطرين والسائدين ، ظلت هذه الفنون بحاجة الى وسائل تعبير جديدة او الى امكانيات مادية غير متوفرة لها . فالمجلات التقليدية التي كانت اقرب الى الحلقات الصغيرة الخاصة ، والمقصورة على مجموعات بذاتها ، لم تكن تنظر الى الجيل الجديد نظرة ثقة ، وكانت لا تفسح مجالا الا بمقدار ، ومن خلال الفجوات الصغيرة التي سمح بها آنذاك لم يستطيع النفاذ والوصول الا قلة محدودة ومحظوظة .

اما الفنون المعقدة ، والتي تحتاج الى امكانيات كبيرة ، سواء أكانت السينما او المسرح ، فقد ظلت محكومة بقوانين خاصة ، وكانت هذه القوانين من الصعوبة والقسوة بحيث لم تنشأ لها تقاليد ولم تتطور ضمن اشكال عصرية نامية، فما عدا المجالات التي اقتصرت على الترفيه والاغاني لم تتقدم السينما ، وما عدا المحاولات التي اقتصرت على ترجمة بعض المسرحيات العالمية وتقديم قسم منها ،لم ينشأ مسرح الشعب ، ولم يولد الكاتب المسرحي المحلي ، واذا استثنينا توفيق الحكيم الذي اهتم بالمسرح الذهني، المسرح من اجل القراءة بالدرجة الاولى ، فان النص المسرحي المحلي لم يظهر في هذه الفترة .

وما يقال عن المسرح ينطبق على السينما ايضا ، فقد خضعت الى قوانين الربح والخسارة ، ضمن مفاهيم مجتمع متخلف ، واقتصرت على التقليد السطحي ، وبدأت تتراجع سنة بعد اخرى ، وتحكمها الصدفة والتهريج والتركيب النفعي المصطنع .

اما الموسيقى الشعبية المتطورة فقد كان جو الارهاب الذي ساد خلال فترة معينة من القسوة والارهاق الى درجة ان البذور الاولى التي نمت وترعرعت في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى ، وعلى ايدي موسيقيين شعبيين موهوبين امثال سيد درويش وبيرم ، ان هذا النوع من الموسيقى تراجع في مرحلة تراجع الحركة الشعبية والسياسية ليحل محله نوع آخر ، يراد له ان يلائم المرحلة « الجديدة » ويستجيب لها .

واقتصرت الموسيقى الغربية المتطورة على مجموعات صغيرة ، ولم تصل الى وجدان الجماهير .

وهذه الحالة ذاتها تنطبق على الغناء ، فالتغني بامجاد الملوك العرب والاعاجم ساد وانتشر، والاشادة بحياة الفلاح « السعيد » والريف في ظل الاقطاعي ، لم يعودا مجرد ذكر لحالة من الحالات وانما رغبة من رغبات التكريس والتأبيد ، وتراجع او زال من وسائل التعبير الرسمية كل التراث الشعبي للغناء الوطني الذي ساد في فترات سابقة، والذي ولد جزء منه في ظلمات السجون والمنافي البعيدة او تحت ظلال المشانق .

ان حالة من الركود والتراجع والهبوط سادت وسيطرت خلال فترة السيطرة الاجنبية ، واستمرت بعد ذلك ، ولان البرجوازية العربية « الصاعدة »، والتي استلمت السلطة بعد ان تراجعت القوى الاستعمارية المحتلة، هي مزيج من الاقطاع والطبقة التجارية ، ومرتبطة الى حد بعيد بالمرحلة السابقة ، وليست نقيضا لها ، ولانها متخلفة ضمن مقاييس البرجوازية الصناعية التي سيطرت في الغرب ، فقد كانت وسائل تعبيرها متخلفة ايضا ، ولم تتجاوز الوسائل التي كانت سائدة في ظل الاحتلال المباشر .

ضمن هذه المعطيات كان من الصعوبة بمكان كبير ان تتغير الصورة الفنية او الادبية ، نظرا للاسباب التي ذكرنا بعضها ، ونظرا للتخلف الكبير الذي ميز الحركات السياسية، حتى التقدمية ، سواء من حيث تنظيمها وتأثيرها ، او من حيث نظرتها الى وسائل التعبير هذه .

ان النظرة الى الاداب والفنون هي جزء من النظرة الى المجتمع ، وهي جزء من الفلسفة التي تنبع منها تلك النظرة او تحكمها ، فما دامت النظرة الى المجتمع، والتي تنبع منها المواقف السياسية محكومة بهذه العقلية والاساليب البدائية ، وافرزت تلك الاشكال والعلاقات ، فان الآداب والفنون كانت في نهاية قائمة الاولويات بالنسبة لتلك الحركات . يضاف الى ذلك ان الفترة المقصودة كانت محكومة ايضا ، في الجانب التقدمي، بنظرة خاطئة ومتزمتة وعميقة في نفس الوقت، ولقد ادت بدورها الى افراز اشكال ومفاهيم ساهمت ، بنسبة معينة ، في التخلف الذي ساد وسيطر في تلك المرحلة .

ولان الكثير من الفنون الحديثة المتأثرة بالغرب لم تجد الاجواء والامكانيات التي تساعدها في التعبير عن نفسها ، حتى داخل الحركات السياسية الجديدة ، فقد بدأت تعبر عن نفسها باشكال فردية ، او ضمن مجموعات صغيرة ومحدودة ، وظلت اقرب الى الهموم الذاتية ، او في احسن الاحوال ، لم تصبح بعد هما شعبيا ، فالكثير من الروابط والصلات التي تنشأ في مجتمعات سليمة ، وتعبر عن نفسها في ظل الحرية ، لم تتوفر بعد ، ولم يخلق التفاعل الضروري من اجل الوصول الى صيغ جديدة .

وهكذا ظلت الافكار والاشكال القديمة هي المسيطرة، وظلت وسائل التعبير ذاتها ، مع تغييرات جزئية اقتضتها طبيعة المرحلة ، وخلقت طموحات واوهاما جديدة ، اضافت الى التراث التعسفي الذي كان سائدا عبئا جديدا.

اصبحنا آذن امام حركة مركبة ، حالة اكثر تعقيدا

وصعوبة من تلك التي كانت سائدة من قبل ، واصبحت الاجيال الجديدة تعاني اكثر من السابق ، لان الكثيرين ممن كانوا في ركاب المستعمر غيروا جلودهم واستمروا في نفس المواقع ويملكون نفس السلطات ، ومن تلك المواقع والسلطات ، أخذوا يمارسون اساليب اشد قسوة من قبل لقمع اية محاولات جديدة ، ولسد الطريق امام الاجيال التي عرفت المذاهب والاساليب العصرية وبدأت تحاول التبشير بها . لكن شيئا جديدا بدأ يظهر في هذه المرحلة : الطموحات والافكار التي اخذت تتكون اكبر من محاولات القسوة والترويض ، والاشكال السائدة لم تعد قادرة على الاحتواء واستمرار فرض السيطرة ، هذا في الوقت الذي بدأت تذبل وتموت الصرخات العمياء القديمة ـ « الجديدة » ، واصبحت وسائل تعبيرها من التهافت والضعف بحيث لم تعد تقوى على الصمود والاستمرار .

وكانت أولى المعارك التي وقعت في هذه المرحلة هي معركة الشعر الحر .

صحيح ان معارك عديدة سبقت معركة الشعر الحر ، خاصة معارك الديمقراطية والمعاصرة والتراث ، وعبرت عن نفسها باشكال عديدة ، في الصحافة الجديدة ، في البرلمانات التي قامت بعد الاحتلال ، في الدساتير الجديدة ، في الافكار والشعارات التي بدأت تطرحها وتطالب بها الحركات السياسية التقدمية ، في الغضبات الجماهيرية الواسعة التي حدثت في اماكن عديدة من الوطن العربي ، ثم في التغيرات التي اخذت شكل هزات كبيرة ، هنا وهناك ، لكن ظلت معظم هذه التغيرات ضعيفة وعمياء ، لانها لم تستند الى دليل نظري واضح ومتكامل . وحتى الحركات التي كانت اكثر تقدما من غيرها لم تستطع ان تقدم افكارا واضحة عن الكثير من المفاهيم والشعارات التي تنادي بها .. وفي نطاق الادب والفن .. لم تستطع هذه الحركات ان تقدم المساعدة الفعالة او النماذج المتفوقة لاقناع الناس ودفعهم الى الامام خطوات كبيرة .

واذا كانت « الاداب » قد جاءت في هذه الفترة ، فترة المخاضات السياسية الكبيرة ، وفي اعقاب تغيرات سياسية عاصفة ، فان الهم الذي انطلقت منه ، رغم الاعلان غير المباشر ، كان الديمقراطية والمعاصرة . وخلف الشعر والقصة والمسرحية والرواية والدراسة كانت تكمن المفاهيم الجديدة عن الديمقراطية والمعاصرة ، وكان هذا الهم المحرك الاساسي في الاختيار ، وفي المواقف والمعارك التي خاضتها .

ان مقياسا ما يكمن بالضرورة وراء جميع المواقف ، واذا كان الفكر انعكاسا للواقع المادي ولحركة المجتمع ، فان التعبيرات المباشرة وغير المباشرة عن المواقف والسلوك ، في الآداب والفنون ، وفي جميع النشاطات الاخرى ايضا ، تنبع من حركة المجتمع ومن الموقف الذي يفسر هذه الحركة ويعطيها ابعادها ومفهومها . ولذلك ، ومن اجل التعبير عن الجديد ، فلا بد لكل نشاط ابداعي ان يعبر عن هذه الحركة ، وان يسهم في اعطاء مفهومها بعدا اضافيا لاغنائه وتوضيحه وتحديده ، واذا لم يتوفر لهذا النشاط الابداعي تلك الصفة ، فانه لا يحظى بهذه التسمية ، ولا يمكن اعتباره اضافة نوعية جدية .

واذا كان مجرد ظهور « الاداب » ، ضمن الظروف والشروط .. والمفاهيم التي اشرنا اليها ، مساهمة في النشاط الابداعي ، فان المواقف والمبادرات والمساهمات .. والمعارك ايضا ، كانت تعبيرا عن هذا النشاط .

ولما كانت « الاداب » مجلة للاداب والفنون ، بالدرجة الاولى ، وتتركز همومها ومعاركها الاساسية في هذا المجال قبل غيره واكثر من غيره ، فقد بدأت اولى المعارك في مجالات قبل غيرها واكثر من غيرها ، ومن جملة المعارك الرئيسية التي خاضتها كانت معركة الشعر الحر ، الالتزام ، الرواية ، المسرح ، التراث ، شعر المقاومة ، وعشرات المعارك الاخرى .

وما دام الانسان لا يملك اوراقا ، فان الافكار التي يمكن ان يعرضها اعتمادا على الذاكرة تشير ولا تسجل ، وتذكر ولا تستعرض ، لان الاشارة من ذاكرة محترقة ، وفي ظل اجواء الحزن والرحيل والموت .. تبقى محاولة ، وغالبا ما تخيب المحاولة ، لكن مع ذلك فان الكثير من المحاولات تستحق المغامرة والاقدام ، مهما كانت صعبة ، فلاحاول اذن الاشارة الى بعض ما حصل في ظل الحرائق والرحيل الدائم وانتظار المجهول !

الشعر الحر

صحيح ان بدايات الشعر الحر تعود الى فترة سابقة لظهور الاداب ، لكن الاداب هي السجل الحقيقي لهذا الشعر ، بالدرجة الاولى والاساسية ، ولفترة طويلة . لقد حدث ذلك منذ البدايات الاولى . وفي هذا السجل لم تثبت تواريخ الميلاد والنسب وصلات القربى فقط ، بل وثبتت فيه ايضا فلسفة الشعر ومبررات وجوده وجدارته ، ولقد خط ذلك كله جيل باكمله وليس الشعراء وحدهم .

واذا كانت معركة الشعر الحر قد حسمت منذ وقت طويل ، ولم تعد مجالا للمناقشة من حيث كونه شعرا او غير شعر ، وانه جدير بالبقاء ، فان المعارك التي رافقت تلك البدايات من الاهمية والاتساع والعنف بحيث ان اصداءها لا تزال حتى الآن !

كلنا يتذكر مواقف الشعراء التقليديين وفلاسفة الشعر التقليدي .. ولعل العقاد ، « شاعرا » وناقدا ، واحد من هؤلاء ومن تلك المواقف .. وكلنا يتذكر المعارك العنيفة التي حصلت قبل العقاد وبعده . واذا كان هذا الشعر قد عمّد وتم الاعتراف به ، ولم يعد احد يناقش في انتسابه ، فان المعارك الاولى ساعدت كثيرا في وضع القواعد وتكوين التراث له ، ولقد ساهم الشعراء الرواد انفسهم في التعبير عن الطبيعة الجديدة لهذا الشعر ، وقدموا نماذج كانت من القوة والاصالة الى درجة اصبح

معها هذا الشعر ، فيما بعد ، الطريقة الوحيدة ، او الاساسية ، في المرحلة الحالية .

لا يعنينا هنا ان نؤكد من هو الذي كتب اول قصيدة في هذا الشعر ، بلند الحيدري ام نازك الملائكة ام بدر شاكر السياب ، المهم التأكيد ، هنا ، ان رواد هذا الشعر وجدوا ضالتهم في الاداب ، ووجدوا السند او الحائط الذي يعلقون عليه قصائدهم ، ومن خلال الآداب قدموا ، اضافة الى الشعر ، فلسفة هذا الشعر ومبرراته واروع نماذجه .. واستطاعوا بالجهد والمثابرة والتفوق ان يكرسوه نهائيا .

ان معركة الشعر الحر من اهم المعارك واكثرها خصوبة وأهمية في التاريخ البكر للاداب ، وبعدها انتقل هذا الشعر الى دواوين العرب ومنابرهم ومجلاتهم ، واصبحت له تقاليد وحصانة ، ولم يعد مضطرا للدفاع عن النفس او التواري في دهاليز الجامعات او في زوايا المقاهي الشعبية ، اصبح مخلوقا حيويا ينتقل من مكان الى آخر واضحا جريئا .. ومتهورا في بعض الاحيان .. وتم الاعتراف به نهائيا .

الالتزام

من القضايا البارزة التي شغلت قسما كبيرا من المثقفين ، ولا تزال اثارها باقية الى الآن ، قضية الالتزام: لمن يكتب الاديب ؟ هل الالتزام يتناقض مع الحرية او الوجه الآخر لها ؟هل الادب والفن وسيلتان للتغيير والمساهمة من اجل بناء عالم افضل ام هما وسيلتان للمتعة واشباع ذات الفنان قبل اي شيء آخر ؟

ان هذه القضية التي احتلت مساحات كبيرة في صحافة الغرب ، وخلقت مناقشات طويلة بين تيارين في الفكر والفن ، وجدت اصداءها في الصحافة العربية ، وانتقلت الى حلقات المناقشة والحوار بين المثقفين العرب ايضا .. واذا كانت قد حسمت بصورة معينة ، بنسبة معينة، فان لحسمها في الفكر الغربي، دورا في سرعة حسمها بين المثقفين العرب ، اولا ، ولان طبيعة المشاكل والهموم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعيشها المنطقة العربية من الاهمية والثقل والالحاح لدرجة تسلب انصار الفن للفن معظم اسلحتهم او كل اسلحتهم ، ثانيا . ولذلك فان معظم الادباء والمفكرين العرب يتفقون في جوانب عديدة بنظرتهم الى دور الادب والفن ، لكن الاختلاف ينشأ حول قضايا اخرى : الشكل والمضمون ، المدارس الاجتماعية والسياسية ، المدارس الفنية ، المقاييس التي يجب ان تعتمد في فهم وتقييم العمل الفني ، النظرة المتفائلة او المتشائمة التي توجه الفنان .. ومدى مساهمة هذه المدرسة او تلك ، هذه النظرة او تلك ، في دفع الامور الى امام .. وهكذا ..

لقد هزم انصار الفن للفن .. لم يبق منهم الا فلول هرمة وعاجزة ..وحتى هذه الفلول تحاول تقديم المزيد من البراهين والادلة ، ليس على اقتناعها بهذه النظرية ، وانما في تبنيها لمواقف رجعية وغيبية ومضللة .. اما في سلوكها العملي فانها تصب في المجرى الاخر .. المجرى الذي يخدم التخلف ، وتؤكد كل يوم مدى ارتباطها وعلاقاتها السياسية !

ان مفهوم الالتزام وقع بين تيارين في الفكر العربي المعاصر ، تيار الوجودية وتيار الماركسية ، لكن التطورات التي طرأت على كلا التيارين الاساسيين انعكست بوضوح ايضا ،فلم يعد احد يتبنى التيار الوجودي الذي ساد خلال مرحلة معينة ، واذا كان هناك من يتبناه فان تأثيره محدود،ومساهمته لا تتجاوز الدفاع عن الموقف الفلسفي اكثر منها القدرة على التعبير الابداعي عن هذا الموقف. كما ان الماركسية ، خاصة في مجال الادب والفن، قد تطورت الى درجة كبيرة ، وعلى التجديد في الربع الاخير . وبدأت تقدم افكارا ومفاهيم جديدة ومختلفة عما كان سائدا في الفترة الستالينية .

ان استعراضنا لهذين التيارين لا يهدف الى التقييم قدر ما يهدف الى تسجيل بعض الملامح التي سادت الفكر العربي في فترة الخمسينات والستينات ، ويؤشر الخارطة الفنية والفكرية التي كانت سائدة آنذاك . وهذان التياران، وان كانت لهما بقايا في الاعمال الابداعية ، بصفتهما الاولى ، فان الاعمال الابداعية المعاصرة قد تجاوزتهما بمراحل كثيرة ، اذ لم يعد هناك من يصرخ صرخات سارتر او ينظر الى الحياة على انها الجحيم وان الاخرين هم الابالسة ، كما ان جدانوف توارى من الادب العالمي، بما في ذلك الادب العربي،واصبحنا الآن امام مرحلة جديدة، وهذه المرحلة ليست نتيجة تزاوج بين تيارين او مدرستين وانما تجاوز للمدرسة الاولى واعطاء مفاهيم ومضامين اكثر ايجابية ورحابة للمدرسة الثانية ، وبذلك حسمت احدى اكثر المشاكل تعقيدا وخطورة ، وكان حسمها لصالح الفكر التقدمي وانتصارا له .

لم تعد المسألة الالتزام في الادب والفن موضع خلاف من حيث المبدأ ، لكن نظرا لتعدد مدارس النقد ، فان كل مدرسة من هذه المدارس تعطي لمفهوم الالتزام حدودا تختلف عن الاخرى ، ولا تزال المسألة قائمة حتى الآن ، ولقد كان « للاداب » تاريخيا ، دور في هذه المسألة ، وان كان هذا الدور قد تأثر الى حد كبير بالمفهوم الوجودي خلال بعض المراحل ، لكنه استقل عنه وتجاوزه.

القصة والرواية :

سوف يأتي يوم يكتب فيه تاريخ القصة والرواية العربية : متى بدأت ، كيف تطورت ، وما هو موقعها ضمن الفنون الاخرى ، وضمن تطور القصة والرواية في العالم ، وحتى ذلك الوقت فان القصة ، تاريخيا ، لا تزال تؤخذ ، اغلب الاحيان ، حسب الاقطار ، وتكاد تتميز بهذه الخاصية خلافا لفنون اخرى ، كالشعر والسينما

والموسيقى ، واذا كانت هناك ضرورة لتقديم بعض الاسباب التي تفسر هذه الظاهرة فلا بد أن يبرز ضمن هذه الاسباب: عدم الاعتراف بالدور المستقل والمتميز لهذه الاداة من ادوات التعبير ، او عدم اعتبارها موازية في اهميتها للادوات الاخرى ، نظرا لضعف النماذج، ولتباعد الفترات الزمنية، اضافة الى تداخل هذه الاداة مع غيرها ،او عدم وجود قصاصين محترفين يعتبرون القصة والرواية همهم الاساسي او الوحيد .. اضافة الى استقلال شوء القصة والرواية في كل قطر وعدم الترابط بين الاقطار ، ربما لاسباب سياسية ، في هذا المجال ، ولضعف حركة الكتاب في السوق ووجود العراقيل في وجه انتشاره . لذلك نجد ان القصة العراقية ظهرت وتطورت ضمن بيئة محلية ، وكذلك الحال بالنسبة للقصة السورية واللبنانية ، اما في الشمال الافريقي فلقد كان تأثير الثقافة الفرنسية عليها واضحا ، اضافة الى انقطاعها ، بسبب اللغة ، عن النماذج العربية ، مما اعطاها ملامح مختلفة . وما عدا القصة المصرية ، التي كانت اكثر انتشارا وتأثيرا في قصص الاقطار الاخرى ، واكثر تطورا ، ومن حيث توفر وسائل التعبير في وقت مبكر ، وامتدادها الى اقطار اخرى ،فان القصة العربيه ظلت محكومة بقوانين وشروط محلية قاسية ، وهذه القوانين والشروط اعطتها ملامح وحددت لها مسارا جعلتها في النهاية ضعيفة البناء محدودة الانتشار ، واخرت بالتالي الاعتراف بها وسيلة اساسية من وسائل التعبير . هذا بالرغم من وجود نماذج بارزة وناضجة ظهرت في اكثر من قطر عربي ، فرغيف يوسف عواد ، وقصص فؤاد الشايب ، او شكيب الجابري وروايات ذو النون ايوب وغيرهم ،تعتبر متقدمة في جوانب كثيرة على قصص عديدة ظهرت في مصر، لكن لم تتح لها فرص الانتشار والتأثير الا في الحدود المحلية ، عكس النماذج ، حتى الروائية ، التي ظهرت في مصر،والتي غزت معظم الاقطار العربية واثرت سلبيا على تطور القصة العربية.

لا شك ان طبيعة الاوضاع والعلاقات العربية ، ومستوى التطور ، بما في ذلك العلاقات الثقافية او مستوى الثقافة وانتشار التعليم ، لعبت دورا سلبيا او ايجابيا في هذا المجال .

ان هذا شيء من التاريخ وشأن من شؤونه ،وسوف يأتي يوم يقيم ويسبب فيه ذلك بوضوح ودقة .. اما الصورة التي تبدو لنا الان فانها شديدة الاختلاف ، اذ اضافة الى الاعتراف الكامل بالقصة والرواية ،باعتبارهما وسيلتين اساسيتين من وسائل التعبير ، فان الصفة التي بدأنا نكتسبانها ايضا هي انها عربية بالدرجة الاولى، واصبح تقييمها يصدر من خلال هذه الصفة،لانها اصبحت عربية من حيث قراؤها ونقادها ، رغم بعض المعوقات ، ورغم الملامح المحلية التي تميز قصة عن اخرى ، نظرا لمكان صدورها والموضوع الذي تتناوله .

لا شك ان وسائل التعبير المعاصرة اكثر قدرة وتأثيرا بالمقارنة مع الوسائل التي كانت متاحة من قبل ،لكن القيود السياسية . خاصة في المرحلة الحالية ، أصبحت اكثر قسوة وشدة من اوقات سابقة،ورغم ذلك فان اية قصة او رواية جيدة تمتلك من الامكانية ما يوازي انكتاب السياسي في بعض الحالات ، وتستطيع ان تتجاوز الكثير من العراقيل والقيود ، ولو بطريق التهريب .

هل حصل هذا بالصدفة ؟ هل حصل نتيجة التطور التقني ؟ هل حصل بظهور امكانيات قصصية وروائية في اقطار عربية عديدة وتخطيها للحواجز الاقليمية ؟

لا ينكر ان عوامل عديدة ساهمت في خلق الظاهرة او الحالة التي نراها اليوم ، لكن يجب ان نسجل باعتراف كامل ان دور بيروت كان كبيرا وهاما ، وان في بيروت من المنابر والامكانيات ما اتاح وصول الصوت وصداه الى اقصى المناطق العربية ، وبعقلية متجاوزة للمنطق الذي كان سائدا ، وبتخطيط عربي يهدف الى اقامة بناء متكامل للقصة العربية .

لقد لعبت بيروت دورا بارزا وكبير الاثر ، سياسيا وثقافيا ، خلال العشرين سنة الاخيرة ، ولقد لعبت « الآداب » دورا متميزا وهاما في مجال القصة والرواية واذا كان الدكتور سهيل ادريس قد استطاع من خلال الاداب ان يساهم في ايجاد صحافة من نوع جديد ، فان مساهمته في بناء قصة ورواية عربية كانت هامة واساسية ،ليس من حيث كونه قاصا وروائيا فحسب ، بل ومن خلال تكريس الاعتراف وتعزيزه لهاتين الاداتين من ادوات التعبير . حصل ذلك اولا من خلال اعتبار الاداب مجلة عربية بالدرجة الاولى ، عربية بمادتها وكتابتها واسواقها ،وثانيا في ايجاد تقاليد لم تكن مألوفة ، او لم تكن واسعة الانتشار ،حيث تبنى التعريف بالقصاصين والروائيين العرب ، وتبنى اقامة مسابقات للقصة القصيرة والرواية . وقد لا يكون من المبالغة اذا اشرنا أن عدد امن المع كتاب القصة والرواية دخلوا هذا الملكوت من خلال الاداب ومن خلال الجوائز التي حصلوا عليها ، حين كانوا كتابا ناشئين ، ثم انطلقوا في رحاب المنطقة ، بحرص على المكانة التي حصلوا عليها ، او بتفريط ، تحت تأثير نشوة الظفر الاولى ، ليستمروا في الكتابة القصصية والروائية .. او لينتهوا في اماكن اخرى !

بايجاز يمكن القول ان دور الاداب في بناء القصة والرواية العربية كان هاما وهو الان ، وفي المستقبل ، جدير بان يسجل ، كاحد مظاهر ومراحل تطور القصة العربية .

وضمن هذا المجال لم تقتصر الاداب على اقامة المسابقات وتخصيص الجوائز للقصة والرواية ، وانما ساهمت ايضا في تقديم نماذج ناجحة وهامة للقصة العالمية ، سواء تلك التي نشرت على صفحات الاداب مباشرة ، او التي نشرت بطبعات خاصة صادرة عن دار الاداب واذا كان من الضروري تقييم هذا الجهد وابراز

ملامحه الايجابية ، فلا شك ايضا أن له ملامح سلبية انعكست بوضوح على مجموعات كبيرة من كتاب القصة والنقد ، وقد تمثل ذلك بالاسراف المبالغ فيه والذي طبع عددا كبيرا من ترجماتها خلال فترة من الزمن ، خاصة ترجمة الفكر الوجودي وترجمة معظم او كل ما كتبه كولون ويلسن ، اضافة الى عدم وجود خطة دقيقة في اختيار امهات الكتب العالمية في مجال القصة والرواية والنقد ، وترجمتها .

ان الهجمة الوجودية التي طفت في اواخر الخمسينات واوائل الستينات ، والتي تركت بصماتها الواضحة على الكثيرين ، قد تراجعت الآن ، ولم تعد اكثر من مجرد رافد من جملة روافد الفكر العربي والاسلوب العربي في التفكير والكتابة .

ان الجهد الفردي ـ مهما كان كبيرا وذكيا ـ لا يمكن ان يساهم الا في نطاق محدود ، كما لا يستطيع ان يكون بديلا عن الجهد الجماعي ، فالجهد الفردي محكوم بقوانين وعوامل ليست هي بالضرورة التي تحكم الجهد الجماعي ، ولذلك تقضي الضرورة تحرير الفرد من ضغط قوانين السوق المباشرة وافساح المجال لخيارات افضل من خلال جهد جماعي ، وربما رسمي ايضا ، والاعتماد على تخطيط بعيد المدى ، ووضع اولويات من نوع معين غير محكومة بعوامل المنافسة والربح السريع .

ومع ذلك ،وبالرغم من ذلك ايضا، فقد استطاعت الاداب ان تقدم عددا بارزا من الترجمات الهامة ، وان تساهم في حركة الترجمة والتبادل الثقافي . وان توفر للاجيال الجديدة ترجمات اكثر دقة واكتمالا من تلك التي كانت سائدة خلال فترة سابقة .

المسرح

بموازاة الجهد الكبير الذي بذلته الاداب من اجل اقامة بنيان مستقل ومتميز للقصة والرواية ، فقد بذلت جهدا بارزا ايضا في مجال المسرح، فنشرت عددا من المسرحيات الهامة ، التي لعبت دورا في المسرح العالمي المعاصر ، نشرت عددا من المسرحيات على صفحاتها ، ثم اصدرت سلسلة المسرح العالمي ، ولقد كان لما تنشره تأثير كبير على الحركة المسرحية العربية ، لانها هدفت من خلال اختيارها ان تقدم مسرحا من نوع جديد ، فاختارت مسرحيات ليست للقراءة فقط وانما للعرض ايضا ،ودفعت عددا من كتاب المسرح العرب الى الاهتمام بالموجات المسرحية الجديدة ومحاولة الاستفادة منها .

وفي هذا المجال لم تقتصر على المسرح الوجودي ،وان كان قد احتل الجزء الاكبر من هذه السلسلة ، وانما قدمت مسرحيات اخرى ايضا : بستان الكرز مثلا .

ان عملية الترجمة في المسرح اكثر صعوبة وارهاقا بالنسبة لفرد او لمؤسسة نشر خاصة. فالرواية او الكتاب السياسي تكتسبان حياتهما المستقلة والكاملة بمجرد صدورهما ،أما المسرحية ، اية مسرحية ، حين تكون نصا مطبوعا فقط ، فانها تكون محدودة الانتشار ، ولا تتكامل الا حين تعرض ، وما دامت الحركة المسرحية العربية ضعيفة ومحكومة بقوانين وقيود قاسية ، وما دامت الفرق المسرحية تتناول النص دون مقابل ، ودون استئذان في كثير من الاحيان ، فان من المفهوم الا تستمر المؤسسات الخاصة في القيام بهذا العبء وتحمل الخسائر الكبيرة نتيجة ذلك ، خاصة في ظل منافسة غير متكافئة وبشروط غير اقتصادية .

يضاف الى ما تقدم ان النقد المسرحي احتل حيزا مهما على صفحات الاداب ، واستطاع ان يواكب الحركة المسرحية مواكبة مستنيرة وان يسدد خطواتها ، وان يقدم لها ابرز التطورات في المسرح العالمي ، ولقد كان لهذا النقد فائدة مزدوجة ، فهو من ناحية ساهم في تنمية ثقافة القارىء ، واطلاعه على اخر تطورات المسرح العالمي، ومن ناحية ثانية جعل الحركة المسرحية ، خاصة بالنسبة للعاملين فيها ، ضمن دائرة الضوء ، ورتب مسؤوليات اضافية تجاه المتفرج الذي اصبح يطالب بموضوعات ومستويات جديدة .

التراث :

الرجعية السياسية بحاجة دوما الى سند فكري لكي تستمر بسيطرتها وتحكمها ، ولقد لجأت في كل المراحل ، وفي كل مكان ، الى ايجاد الاطار الفكري لتبرير السيطرة والاستغلال من جانب، والى محاربة الافكار التقدمية والعصرية من جانب اخر . وكان لديها باستمرار « فلاسفتها » وكتابها وشعراؤها ،وكان هؤلاء يقومون بهذا الدور قناعة او ارتزاقا ، ويستفيدون من جميع الوسائل في الحروب التي يخوضونها ، وبشكل خاص من التراث.

واذا كان في تراث كل شعب العديد من القيم والافكار والتقاليد ، فان الرجعية وفلاسفتها يلجأون دوما الى ما يؤيد ويدعم استغلالهم وسيطرتهم ، ويتناسون الجوانب الاخرى في التراث ، بل ويحاولون أن يدفنوا هذه الجوانب تحت ركام الاضاليل والارهاب ، وكثيرا ما لجأوا الى الدين والى السلطة الدينية من اجل تعزيز مواقفهم . أما القيم والافكار والتقاليد التي من شأنها محاربة الاستغلال ، والتي تدعو الى المساواة وتطالب بتحرير الانسان وابراز الجوانب الايجابية المشرقة في تراث وتاريخ الشعوب، فقد كانت بعيدة عن متناول الجماهير وراقدة في بطون الكتب القديمة .

هذه الحرب المعلنة او الخفية بين مفهومين للتراث لم تقتصر على الفلاسفة المحليين ،وانما ساهمت فيها ايضا جهات اجنبية عديدة،ولاهداف اقتصادية وسياسية،فكانت حملات التبشير ، وكانت البعثات الكثيرة تحت عناوين متعددة ، من بعثات الاثار الى بعثات دراسة اوضاع الجماعات والاقليات ، الى دراسة اللغات واللهجات ... والتاريخ .. الخ،وكان الهدف الاساسي لهذه الحملات

كلها أن تكون في خدمة الطبقات الحاكمة ، اجنبية كانت او محلية .

ولو استعدنا الى الذاكرة البعثات الاجنبية التي زارت المنطقة منذ مطلع هذا القرن ، وحاولنا دراسة نتائج نشاطها في المجال الفكري وحده ، نجد ان جزءا مهما من مرتكزات الفكر الرجعي مستمد من الافكار والاجتهادات التي روجت لها تلك البعثات ، خاصة في مجال التاريخ واللغة . فالتاريخ الاسود ، سواء بمادته او طريقة فهمه وتحليله ، والذي يتناول تفسير التراث على انه مجموعة من الفتوحات والحروب ، وانه تاريخ القادة والملوك ، وان الشعوب المتخلفة بحاجة فقط الى المستبد « العادل » ولا يمكن ان تحكم نفسها بنفسها .. ان هذا الفهم للتاريخ تلقفته الطبقات الرجعية وحاولت الترويج له ، ووضعته في مواجهة افكار العدالة والحرية والمساواة التي كانت تطالب بها الشعوب . وفي مجال اللغة ، ونتيجة لعصر الانحطاط الطويل الذي ساد خلال قرون ، فقد ساهمت البعثات الاجنبية في التأكيد على عناصر العامية ، وفي الفرق بقضايا فقه اللغة ونحوها وصرفها واشكال البديع والبلاغة ، دون الالتفات الى الجوانب الايجابية في اللغة ومحاولة تطويرها وجعلها اداة عصرية تستجيب لمتطلبات الحياة وضروراتها .

هذا الاستطراد في بحث موضوع التراث لا تستمد اهمية باعتباره جزءا من تاريخ المنطقة خلال مرحلة سابقة ، وانما لانه موضوع مثار في الوقت الحاضر ، وربما اكثر من السابق ، وبحاجة الى معالجة جدية ومستمرة لاكتشاف الجوانب المضيئة فيه ، وتقديمها الى الجماهير لتكون سلاحا في يدها بمواجهة القوى الرجعية السوداء .

واذا كانت الاداب بمجمل فهمها وموقفها من التراث قد ساهمت في ايجاد ثوابت اكثر ايجابية وفعالية من اجل اعادة النظر ، فان المهمة في المرحلتين الحالية والمقبلة تبدو اكثر اهمية والحاحا .

شعر الارض المحتلة :

مثل الصرخة المفاجئة في ظلمة شديدة السواد انبثق شعر المقاومة ، ومن الارض المحتلة بالذات ، ليعلن اشياء كثيرة في وقت واحد : ليعلن ان روح الاصرار قوية الى درجة ان جميع قوى ومحاولات البغي والقهر والعدوان لا يمكن ان تروضها او ان تنتزعها ، وان علاقة الانسان بالارض مثل علاقة الاشجار والصخور ، وان الحرية رغبة تصل حدود الغريزة فلا تزول ولا تدمر ، وليعلن ايضا ان الشعر ، والشعر الجيد خصوصا ، اداة هامة من ادوات الحرب ، وهذه الاداة حين تنبع من القلب وتلتحم مع العقل وتنتشر بين المحرومين والمضطهدين تصبح اشد خطورة واكثر فعالية ، وليعلن ايضا ان ذلك الخيط المجدول من التاريخ والزمن والعذاب بين اجزاء الوطن ، رغم الحواجز والاسلاك الشائكة والالغام وراجمات الصواريخ .. ورغم المستعمرات المصنوعة ، لا يمكن ان ينقطع او يتلاشى .

لقد فاجأ شعر الارض المحتلة الشعراء والمثقفين اكثر مما فاجأ الناس البسطاء ، ومن هول هذه المفاجأة حدثت اشياء كثيرة لا تحدث في الاحوال الطبيعية عادة ، فبين عشية وضحاها اصبح هذا الشعر ينتقل من شفة لاخرى ، من مجلة لديوان شعر الى اغنية ، ودخل المعركة .

لنترك النقاد يقولون كلمتهم في ذلك الشعر ، لكن الذي يمكن تسجيله الان ان هذا الشعر ، اكثر من اي شعر اخر ، لعب دورا بارزا وهاما ، وفي وقت شديد الدقة والخطورة .. واذا كانت هناك ادوات فنية كونت وجدان العرب المعاصرين ، وساهمت في تغذية روح المقاومة فان شعر الارض المحتلة ، بالتوقيت ، بالخصوبة ، بالتفجر الصادق ، بالمعاناة ، بالعنفوان الجامح الذي لا يعرف التوقف او التسليم .. كان اسهاما بالغ الاثر في خلق روح جديدة لدى العرب ، وعزز الثقة بالنفس ودل ان العرب في الارض المحتلة اقوى واصلب .. واكثر صدقا من العرب الاخرين !

لقد دخل شعر الارض المحتلة المعركة كاقوى ما يكون المحارب واكثر ما يكون رباطة جأش وجسارة ... وشراسة ايضا ، وهذه الصفات التي اكتسبها ليس من خلال رنين الفاظ المناسبات ، ولا من خلال الانفعال الآني المؤقت ، وانما من خلال التشبث بالارض ، من معرفة معناها ، من معاناة الاضطهاد المباشر .. ومن خلال معرفة العدو ايضا .

ان معظم شعر الارض المحتلة من نوع خاص : فيه رائحة الارض والبرتقال ، فيه نكهة الزعتر وقطرات زيت الزيتون ، وفيه تلك الاغاني القديمة المتوهجة الموحية ، وفيه حكايات الجدات التي لا تنسى .. وهذه المعاني ، التي غابت عن الكثير من الشعر العربي ، في الارض غير المحتلة ، اكتشفها اولئك الشعراء الذين كانوا في البداية بلا اسماء ، بلا ملامح ، ثم فجأة اكتسبوا اسماء كبيرة وملامح شديدة الوضوح ، هي اسماء جميع الذين ينتظرون وراء الاسلاك الشائكة ، وملامح البشر الذين يعضون على جراحهم باسنانهم انتظارا ليوم الخلاص . واصبح هذا الشعر عاملا مهما في تطوير الشعر العربي والحياة العربية . انه يعمق ارتباط الانسان بالارض ويعزز مقاومته ... ويقرب الغد كثيرا ، لان هؤلاء الذين ينشدون ، اضافة الى الصدق والعفوية ، فانهم يتحدثون عن تجربة حارقة ، عن عذاب عاشوه ، عن معنى ان يكون الانسان على ارضه ، في بيته ، ذليلا ، مهانا ، وغير قادر على ان يتحرك او يتنفس او ان يستحم في بحر وهواء بلاده !

لقد كانت الاداب من اوائل المجلات التي احتضنت هذا الشعر وعرفت معناه وخطورته ، وكانت من المساهمين في دراسة هذه الظاهرة واستخراج الرموز الكبيرة منها وتعميمها .

ان كثيرا من الاعمال الفنية والادبية تكتسب جزءا

هامـا من قيمتهـا من حيث توقيت ظهورهـا ، لان هذا التوقيت لا ينفصل عن الحس التاريخي بضرورة المساهمة في التغيير والبحث عن الافضل ، او التبشير بـه . وان المجلات تكتسب جزءا من جدارتها التاريخية من خـلال اكتشاف هذه الظواهر الايجابية وتقديمها وتهيئة الفرصة لانتشارهـا ووصولها الى اقصى الامكنة .

قد يبدو شعر الارض المحتلة الان اقل بريقا ، نتيجة التعـود او نتيجـة المرحلـة الراهنة التي تمر بها المنطقة العربية ، لكنه يبقى احدى الظواهر البارزة في هـذه المرحلـة .. وفي المرحلة اللاحقة .

النقـد

في نطاق تأسيس حركة فكرية متكاملـة شجعـت الاداب ، وعلى نطاق واسع ، حركة النقـد ، واصبحـت منبرا هاما ، وطوال الفترة الماضية ، لهذه الحركة اكثـر من ايـة مجلة اخرى .

ان هذا الموقف يشير بوضوح الى مدى الاهمية التي يتمتع بها النقد الادبي والفني ، من حيث كـونه عنصرا مبدعا أولا ، ومن حيث مساهمته في اضاءة العمـل الابداعي ، وابراز الجوانب الايجابية والسلبية فيه ثانيا. ومن حيث الرغبة في تكوين مدارس نقدية موضوعيـة وعصرية تتناول العملية الابداعية من جوانبها المتعـددة والمختلفـة ، اخيـرا .

هذا اتفهم لدور النقد لم يكن موجودا بثبات ووضوح قبل الاداب ، فقد كان،اغلب الاحيان ، عملا هامشيا وذاتيا، وكان ينصب على الاجزاء ولا يتناول العملية الابداعيـة بكاملها،ومن جميع جوانبها ، اضافة الى الطابـع غيـر الموضوعي الذي اتسم به القسم الاكبر ، من خلال المساجلات والقسوة وعمليات التحريض ، في نفس الوقت الذي افتقد فيه الاسس المنهجية التي تساعد على اقامة بناء متكامل وتام للعمليـة النقديـة .

الطريقة التي اتبعتها الاداب في فهم العملية النقدية وممارستها اقامت الكثير من الجسور بين المبدع والناقد، واقامت جسورا بيـن هذين الاثنيـن من ناحيـة والقراء الذيـن كانوا شهودا وحكامـا في نفس الوقت ، من ناحية ثانية . فحيـن يتناول الناقد عمـلا من الاعمال ويحللـه ويفسره واخيرا يقيمه، ثم يأتي صاحب العمل ليقول رأيه في طريقة العمل ثم في نتائجه وفي رأي الناقد .. انهذه العمليـة بالاضافة الى اهميتها الخاصة ، والتي تلقـي اضواء اضافية ، قـد لا يتاح لها الظهور لـولا نشوء هذه العلاقة وضمـن هذه الصيغة ، تساعد كثيرا في توضيح جوانب عديدة في العملية الابداعية ، وتشكل اضافة نوعية تساعد الناقد نفسه على أن يفهم العمل بشكـل افضـل وتساعد القارىء ايضا ، وتعطي العمليـة الابداعية صفـة الحياة والحيوية ، وتكون نتائجهـا في النهايـة كبيـرة الاهميـة .

لقد كانت بعض الاشارات التي وردت في الرسائـل الخاصة ، او في مذكرات الكتاب ، اهميـة كبيرة فـي تفسير العمليـة الابداعية ، ليس من حيث كونها عمـلا متكامـلا وفي لحظته الاخيرة ، وانما من حيث الدوافـع والمراحل وطريقة البناء وعشرات الملاحظات الصغيـرة او الكبيرة الاخرى التـي كونته بهذه الطريقة وعلى هـذا الشكـل .

واذا كنا في المرحلة الحالية نستطيع فهـم بعض الاعمال الابداعية الهامة بصورة افضل ، فقد كان الكثير من الاشارات الخارجة عن العمل ذاته ، سواء مـن الاوراق الخاصة او من ملاحظات الذين كانوا علـى صلة بصاحب العمل ، اهمية في هذا الفهم ، واسرار تكوينه واكتشاف هذا التكويـن .

ليس المقصود هنا المقارنة تمامـا بين هذه الاشارات الاخيرة والنقد الذي نشر،ولايزال،على صفحات الاداب ، لان بعضه لم يكتسب هذه الصفة ، ولكن المقصود الاشارة الى المساهمـة التي قام بهـا بعض المبدعين في توضيح او الدفاع عـن العمل الذي قدموه . فالشعر ما كان ليكتسب ملامحه الواضحة او تتحدد مسيرته التاريخية من حيث الزمن لولا المساهمات البارزة التي قدمها السياب ونازك الملائكة والبياتي وكاظم جواد وبلند الحيدري وعبدالصبور وغيرهم . لقد كان لتوضيحاتهم اثر في تسهيل عمل النقد في وقت لاحق .. او ربمـا في تقصيره : وقد تم ذلـك كله ، او اقسم الاكبر منه ، على صفحات الاداب ، ومـن خلال المعارك التـي نشأت على هامش الشعر الحر .

وما يقال عن الشعر الحر يقال ايضا عن الكثير مـن القصص والروايات ، او بكلمة اشمل ، عن العملية الروائية: تطورهـا ومدارسها وابرز كتابها .

ان هذه القضايا ، وأخرى غيرها ، امثلة في عملية تأسيس الحركة النقدية المعاصرة ، هذه الحركة التي عبرت عـن نفسهـا بعدة اتجاهات ومدارس ، والتي استمرت في التطور والتراجع تبعا لعوامل كثيرة .

اما الباب الذي استحدثته الاداب في وقت مبكر ، « قرأت العدد الماضي من الاداب » ،والذي تناوب علـى الكتابة فيه مجموعة كبيرة من النقاد والمتابعين ، فقد كان اضافة نوعيـة الى الصحافة الادبية العربية،واصبـح تقليدا ايجابيا مفيدا للكتاب والقراء معا ، حيث كان بمثابة الدليل الذي يرشد ويؤشر لقضايا كثيرة ، ما كانـت تستوقف القارىء لولا هذه الاشارات،وكان بمثابة الانذار او الاشارة المبكرة لعدد من الكتاب ، شعـراء وقصاصين ودارسيـن ، بحيث يأخذ كل صاحب حق حقه ، وبشكل عاجل ، دون انتظار المصادفات او العلاقات الشخصية او بعض الاعتبارات الاخرى غير الموضوعية .

لقد كان هذا الباب بابا كبيرا لابراز المواهب واقامـة الحوار المتصل بيـن الذين يكتبون والذين يقرأون، وكـان بمثابة رئاسة تحرير اضافية تراقب وتقيم ، وان كان بعـد

النشر ، ولقد ساعد على انتزاع الغرور وتثبيت المقاييس وترسيخ تقاليد أكثر ايجابية وموضوعية في النقد .

واخيرا ..

ان رحلة الذاكرة كثيرا ما تخون .. او تضعف وتتداخل، واذا كان جزء من سعادة الانسان ، على المستوى الشخصي ، قدرته على النسيان ، فان هذه السعادة لا تلبث ان تتحول الى تعاسة على المستوى العام .

لا شك ان عددا من الباحثين سوف يتصدى الى كل نقطة من النقاط المشار اليها سابقا ، وربما كان كل عنوان بحثا مستقلا او اكثر من بحث .. وبالرغم من انني كنت قد التزمت بالكتابة عن موضوع محدد : « مفهوم الحرية في مسيرة الآداب خلال ربع قرن » فان الموضوع من الخطورة واتساع المدى لدرجة انه بحاجة الى التفرغ والبحث المستقصي والعودة الى اوراق الحياة اليومية لا الاعتماد على اوراق الذاكرة .. واذا أفلتت الفرصة هذه المرة فقد لا تفوت في مرة لاحقة ، هذا مع الاشارة الى الترابط الحي والتشابك في الكثير من العلاقات ، وان كل قضية تعكس القضايا الاخرى وتعطيها ابعادا اكثر وضوحا وتحديدا .

ان ازمة المنطقة قبل ولادة الاداب .. وبوجودها خلال ربع قرن ..والآن..وفي المستقبل المنظور.. ان الازمة بالدرجة الاولى والرئيسية ، هي ازمة الديمقراطية ، ازمة حرية التعبير والعمل ، وما دامت هذه الازمة موجودة فان الكثير من القضايا ستبقى معلقة وبحاجة الى حل.

ان الانظمة الحاكمة في المنطقة كلها لا تؤمن بالديمقراطية ، او تحول الديمقراطية الى صيغ ومفاهيم كاريكاتيرية ، وحتى هذه الصيغ والمفاهيم موجودة بمقدار ما تخدمها وتساعد على استمرارها ، وفي الوقت الذي تعجز هذه الصيغ عن تلبية حاجاتها او تصبح خطرا عليها، فان أول من ينقض عليها هم الحكام انفسهم . وفي الجانب الاخر فان الجماهير العربية لم تتوصل بعد الى قناعات كاملة ونهائية ، وعملية ايضا، في اعتبار الديمقراطية الشرط الاساسي لتطورها وتقدمها .. ولا تزال عرضة للكثير من المؤثرات وعمليات التضليل ، والتي تصور الديمقراطية وكأنها ترف او قضية ثانوية ،أو ان دورها في قائمة الاولويات يأتي في نهاية السلم ، نظرا لتجارب « الديمقراطية » البائسة التي طبعت في بعض اجزاء المنطقة خلال فترة معينة ، ونظرا الى ضعف الممارسة الديمقراطية على المستويين العام والخاص ، داخل المجتمعات او داخل الهيئات ، ولم تصبح هما يوميا له منطقه وضروراته .

هذه الحالة من التعقيد والتشابك جعلت الديمقراطية تضمر وتضعف ، وتأخذ اشكالا مشوهة . ولقد وقع المثقفون انفسهم في اخطاء المفاهيم والتطبيقات .. حتى ان عددا منهم ساهم في وأد الديمقراطية وتشويهها وخلق مزيد من الارتباك في صفوف الجماهير الشعبية ، ولقد انعكس ذلك كله على النضال الثقافي والشعبي ، وبدأت موجة من التراجع والانتكاس تعم المنطقة ، وستبقى كذلك في فترة لاحقة من الزمن، او الى الوقت الذي تصبح الديمقراطية حجر الزاوية ، وتأخذ اشكالا وصيغا واضحة ومحددة وعملية ايضا .

لقد جرت عمليات تبادل واحلال للقضايا والمفاهيم في الفترة السابقة ، واعتبرت بعض القضايا اكثر اهمية، او لها أولوية اكثر من غيرها ، لكن ضمن منطق الفكر المجزأ او الانتقائي، وليس ضمن المنطق الجدلي ، وثبت بالتجربة ان المنطق الاول لم يؤد الى الخطأ فقط بل والى التدهور والتراجع ، والى ضرورة البدء من جديد . وثبت ايضا ان الفرضيات الخاطئة سوف تؤدي بالضرورة الى نتائج خاطئة . وهذه النتائج لا تنعكس على الجماهير بخبزها وتقدمها وحريتها ومساهمتها فقط ،بل وتنعكس ايضا ، وبدرجة اكبر ، على عملية الزمن ، ففي الوقت الذي بدأت بعض الاقطار تضع اقدامها على اول الطريق الصحيح ، وقدمت نموذجا ايجابيا يمكن أن يستمر وينمو مع الايام ، لم تلبث عمليات الاحلال والتبادل التي بدأت في فترة معينة ان قلبت الامور وغيرت مسيرتها ، وحولتها بالتالي الى مجموعة من الهزائم والانتكاسات ،وادت الى اضاعة وقت طويل . والى خلق حالة من الفوضى والارتباك .

من هنا تقضي الضرورة ان تبدأ من جديد ،وبجسارة عملية مراجعة جدية للفكر العربي ، بمفاهيم النظرية وتطبيقاته العملية ، وان تطرح كافة القضايا طرحا عميقا وواسعا وجريئا ، من اجل اختيار الطريق الملائم بطبيعة المرحلة وبطبيعة التطورات التي دخلت العصر ، خاصة في الربع الاخير من هذا القرن . وان طريق ذلك كله بالديمقراطية .

ان الديمقراطية المطلوب الاقتناع بها واشاعتها وممارستها لا تشكل شرطا ضمن شروط كثيرة لبداية الانتقال ، وانما الشرط الاساسي والاول والاهم ، وهذا الشرط لا يمنح من احد ، ولا يتم التوصل اليه بسهولة، ولا يتحقق بشكل عفوي وعبر التطور البطيء ، وانما بحاجة الى ثورة ، ثورة من نوع خاص، وربما كان المثقفون الصادقون الملتزمون اكثر قدرة ومهيئين قبل غيرهم واكثر من غيرهم لتوضيح معالم الطريق الجديد .

..واذا كانت بداية اللقاء مع الاداب في شباط ١٩٥٤ او اول ذكرى لاحقة .. وفي ظل أجواء من نوع خاص .. فان ذكرى ذلك اللقاء في ذلك الشتاء البعيد مقترنة بنوع من الانتظار الممض : انتظار سقوط الديكتاتورية ..

وان بداية جديدة للاداب يجب ان تنهض الان .. في صيف ١٩٧٧ اللاهب القاسي ، والمليء بالمفاجآت .. وليس عبر راديو من الحجم الكبير الذي كان شائعا في تلك الايام ، وانما عبر تلك الاجهزة الصغيرة التي انتشرت في كل مكان ، حتى مع الرعاة في الجرود والوديان العميقة والصحاري البعيدة .. ويمكن عبر تلك الاجهزة أن تنتقل اخبار كبيرة : سقوط الديكتاتورية

العربية « الجديدة » وبداية نهضة الشعب لممارسة دوره.

وربما جاءت مفاجآت كثيرة من حيث لا يقدر الانسان ولا يتوقع ، كما جاء شعر الارض المحتلة ، وكما جاءت الانتفاضات الكاسحة .. وكما سقطت ممالك كبيرة بدت في بعض اللحظات وكأنها خلقت للابد !

يجب ان نتأكد ان اكبر الثورات واخطرها في حياة الشعوب تبدأ ، في مرحلة من المراحل ، حلما في رأس، ثم فكرة .. ثم تصبح ممارسة .. وعندها تصبح احلام جميع الناس ، وتصبح افكارهم وتتحول اخيرا الى ممارسة يومية تنتهي الى طوفان يمسح كل شيء امامه .

لننتظر .. لكن ليس ذلك الانتظار الابله .. وانما ذلك الانتظار الواعي الصبور .. والذي لا يتوقف عن العمل والتحريض .. لحظة واحدة .. وان انتظارا مثل هذا سيكون عظيما وخطيرا !

د. عبدالرحمن منيف